

أمارت عبارة :

التجديد في الشعر

كما براه شاعر القطرين خليل بك مطران

—>>><<<—

في جلسة شاعرة مع شاعر القطرين خليل بك مطران —
أحد الأوتار الخصة في قيثارة الشعر العربي الحديث — كما يقول
أستاذنا الثيات ، تشقق بنا القول ، ونقل بنا الحديث في شجون
من الأدب . فأدبى بنا ذلك إلى الحديث عن قديم الشعر وجديده .
وإلى الكلام عن الشعراء المجددين والتقليدين — وكانت فرصة
طيبة أن أسأل الأستاذ الخليل عن علة عدم تقدم الشعر الحديث ،
وقصوره عن مجارة الشعر العالمي في باقي اللغات ، فأخذ — حفظه الله —
يتحدث في بيانه الرائع عن محاولته الأولى وإخوانه من متقدمي
شعراء هذا الجيل في هذه السبيل ، قال :

ظل الشعر العربي منذ فجر حياته محدود الأغراض ، مقيد
الأفق ، لم تنفس له ميادين الخيال ، ولا مجالات التجديد ، بسبب
طبيعة البيئة التي نشأ فيها ، والأرض التي درج عليها ، والغايات
التي كان يهدف لها ...

وكان المبرزون من شعراء العرب ينسجون على منوال من
تقدمهم من الجاهليين ، ويترسمون خطاهم ، ويسرون على هديهم ،
فلا يجتاز خيالهم وصف البيئة التي يعيشون فيها ، ولا يمتد إلى ما وراء
ذلك من آفاق واسعة وأحاسيس إنسانية ، اللهم ما كانت
تسبق إليه طبيعة الشاعر الفنية بين الحين والحين — على غير
قصد وفي غير عمد — في سياق قصيده ، إذ تجد البيت أو البيتين
كأنما سابقهما محض العاصفة ، وإلهام الفطرة ! وكان أن حدد
علمائهم للقصيد شروطاً لا يمتداهما الشاعر ولا يتخطاها ... فإن
هو جاوزها عد مقصراً ، وأخذ ذلك عليه . ومن أهم هذه
الشروط وحدة القافية ، وقد كان ذلك — فيما أرى — أهم
عوائق نهضة الشعر ، وبخاصة في عصرنا الحديث الذي تنوعت
فيه ألوان الحضارة ، وتغيرت فيه أهداف الشعر ومقاصده ،
وأصحت له أغراض غير التي كانت له بالأمس ؛ فلم يعد الشعر
المناسبات تلك الأهمية التي كانت له ، ولا لوصف البيئة التي
يعيش فيها الشاعر ولا راحته ولا دياره ما كان لها من روعة وبهاء .

٢٤٥٣٠

وقد دعتني ذلك كله منذ بدأت أحول الشعر إلى أن أتبع به
مسيحاً آخر بجاري ما نحن فيه من حياة . وشمس وتلك الحضارة
التي يدفع بها إلينا الغرب ونشقها نحن عنه ، سواء في الثقافة
وتسوع أعراسها ، أو الاجتماع وتمدد مراميه ؛ وكان أن أخذت
أقبل إلى العربية آثار كبار شعراء الغرب وأدبائه من أمثال
شكسبير وكورني وراسين وفيكور هوجو ، وألفريد دي موسيه
وغيرهم من الأنجليز والفرنسيين . متوخياً أن تكون نماذج أدبية
سواء في روعة أختيلها ، أو تعدد مقاصدها ، أو سعة أفقها ،
أو ما تحمله في طواياها من جدة المعنى وروعة اللفظ وبراعة الأداء .
ثم حاولت أن أفهم في الشعر العربي نظم «الملحمة» وما كان له
أن يدخل في هذا الفن إلا إذا نخل من وحدة الروي ، ولكنني
أردت بتجربة منظومة أن أبين نهاية ما يستطيع بالروي الواحد ،
فأنشأت على سبيل المثال قصيدة « بيرون » في نحو من أربعمائة
بيت من بحر واحد وروي واحد . تحيرت لها حرف الرء حتى أبرز
لقراء أقصى ما اتصل إليه طاقة الناظم بالقافية الواحدة . على أن
البنية العربية تعطى في الروي الواحد ما لا تعطيه لغة أخرى باطلاق؛
ولكن التزامه فيها من أسباب ضعف التبسط إذا أريد التقصص
الطويل . أو الوصف الدقيق بالتحليل والتفصيل ، فلهذا عمدت بما
قدمته من المثال إلى أن أصور للأذهان أين موضع العجز عندنا
عن مجارة الشعر القصصي والوصفي والتحليلي عند الأمم التي
لم تلتزم وحدة القافية .

وقد انتفع بمحاولاتي ومحاولات آخر من شعراء عهدي ، نفر
غير قليل من شعراء هذا الجيل ، وتمسك آخرون بما ورثناه عن
شعرائنا الأقدمين ؛ وما زلت أومن بصدق نظرتي في أن التزام
القافية الواحدة هو الذي يقعد بالشعر العربي عن مجارة نظيره في
آداب الأمم الأخرى التي لا تلتزم قافية واحدة كما يقعد بالشاعر
عن التحليق فيما يريد من آفاق بعيدة المدى ... ولن يبيح
القدماء ما آثروا للشعر من النهج ، ولن ينقص من جمال ما آوابه
من الروائع ، ولكن ما لا ريب فيه هو أن طبيعة الحياة قد تغيرت
عما كانت عليه من قبل ، إذ تعددت مناحيها ، وتشعبت مراميهها ،
وتباعدت أطرافها . وما كان لنا في ظروف حياتنا وما تزودنا به
حضارة العلم الحديث من وسائل شتى للعيش ، وضروب مختلفة